إبراهيم اليازجي الناقد الأدبي

د. أحمد أحمد منصور نفادى
كلية اللغة العربية بأسيوط

فى القرن التاسع عشر قامت أسرة اليازجى فى الشام بجهود جبارة فى الأدب والنقد ... وكانت خيرا للأدب والمتأدبين وعاش فى هذه الأسرة ناصف اليازجى صاحب المقامات الذى ملأ الدنيا علما وأدبا .

ثم كان ابنه ابراهيم اليازجى بآرائه فى النقد والأدب يستحق البحث والدراسة حتى نقف على تراثهم وأدبهم نستجلى آثاره واتجاهاته ولقد حاولت جاهدا هنا أن أبين بعضا من حياة ابراهيم اليازجى كأديب وناقد كانت له آراؤه فى الشعر قديمه وحديثه ومهما كان الايجاز والسرعة فانه على كل حال يعطينا فكرة أى فكرة عن حياة هذا الناقد واتجاهاته .

وابراهيم اليازجى هو ابن ناصف اليازجى وهما من أسرة لها باع كبير فى الأدب والنقد نشأ وعاش فى ظل أسرته بلبنان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولقد توفى سنة ١٩٠٦ بعد أن خلد مآثر طيبة فى عالم الأدب والنقد .

لم يكد النصف الأول من القرن التاسع عشر يأذن بالأفول،وعلى وجه التحديد قبل أن تغيب شمسه بسنوات ثلاث حتى ولد الشيخ ابراهيم اليازجى فى أسرة شامية عرفت بحبها للغة العربية وشغفها بالأدب العربى . وبعد بزوغ شمس القرن العشرين بفترة قصيرة عاشها اليازجى ، ودع بعدها الحياة فى عام ١٩٠٦ .

ولقد شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى عالمنا العربى تطورا ضخما شمل كل مرافق الحياة من سياسية واجتماعية وأدبية • ولا يستطيع الدارس — فى صفحات موجزة كهذه الصفحات — أن يتعرض لكل ذلك ، حسبنا اذن أن نشير الى ما كان من أمر الأدب فى هذه الفترة التى كانت ولاشك أخصب الفترات فى هذا القرن وفيما سبقه من قرون أربعة نعم الأدب فى ظلها بسبات عميق ولم يستيقظ الا فى الفترة المشار اليها • وقد تمثلت تلك اليقظة فى بعث لشعر العربى ، وفى خلق أجناس أدبية جديدة على أدبنا العربى وأعنى بها القصة والمسرحية • ومن الطبيعى أن يساير النقد الأدب ، فنجد نقادا يتناولون بقلمهم هذه الأجناس القديم منها والجديد ، فيدلون فيها برأيهم •

ولحق أن ابراهيم اليازجى كان على رأس هؤلاء النقاد الذين شاركوا فى هذه الحركة النقدية ، والدارس لآثاره التى خلفها يخلص الى حقيقة هى أن اليازجى قد دار بقلمه فى كل هذه الأجناس • بل انه وضح مفهوم النقد الصحيح ، وحث النقاد على الأخذ به والسير على هديه •

وليس بوسع هذا البحث القصير أن يعطى صورة متكاملة لجميع نظرات اليازجى النقدية • فقصارى جهده أن يجلى نظراته فى أهم هذه الأجناس وأقدمها — وهو الشعر — تاركا بقية نظراته ، ولعلها تتناول فى بحث آخر يوضع أيضا بين أيدى حضراتكم •

يتناول اليازجى فى مقالاته التى نشرها على صفحات مجلة الضياء التى أنشأها فى سنة ١٨٩٨ الشعر بالنقد ، فينقل تعريف العروضيين له ويذكر طريقتهم فى اخراج المحترزات • بيد أنه لا يوافق على هذا التعريف ولا يرتضى تلك الطريقة ، لأن هذا التعريف لا يشرح ماهية

الشعر ولا يبين حقيقته ، اذ أننا ــ على فرض صدق هذا التعــريف ــ لو عمدنا الى أى كلام شئنا من المنثور ووزناه وقفيناه لجاء ذلك شعرا ، ولكن الظاهر من مذهب المحققين بل الظاهر من صنيع شعراء العرب وغيرهم أن حقيقة الشعر مخالفة لهذا،فهو ــ كما يقول اليازجى ــ يختص بأجناس من المعانى وضروب من الأساليب يتميز بهــا عن النثــر •

وهو أيضــا لا يرتضى ما أورده ابن خلدون من أن الشــعر هو الكلام البليغ المبنى على الأوصاف والاستعارات المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى الجارى على أساليب العرب المخصوصة • لأنه غير واف ببيان حد الشعر اذ كل ما ذكره ابن خلدون هو من القيود اللفظية التى تتعلق بصناعة النظم لا بحقيقة الشعر •

ولا يوافق على ما جاء فى المثل الســائر من فروق بين الشــعر والنثر ، وهى فروق ثلاثة فى رأى ابن الأثير :

أولها : أن أحدهما منظوم والآخر منثور •

وثانيها : أن من الألفاظ ما يعاب استعماله فى النثر ولا يعــاب فى النظم •

وثالثها : أن الشاعر اذا احتاج الى الاطالة لم يجد فى كل نظمه، والكاتب يطيل ويجيد ما شاء •

ويعلق اليازجى على كل ما أورده من آراء بقوله : « وأنت ترى أن كل ما ذكر هنا غير داخل فى شىء من حقيقة الشعر والنثر ، وانما هى أعراض اضافية لا تقوم فصلا ولا تكمل حدا » •

وبعد أن يرفض ما جاء عن العرب من تعريفات للشــعر يصرح بأنه طالع طائفة من أقوال الغرب فى هذا المعنى بين مختصرها ومطولها،

قديمها وحديثها ، فوجد ثمة اضطرابا شديدا بحيث لم يكد يقع على القول الفصل فى حد الشعر لديهم ، وبيان ماهيته وماهية النثر بما يزيل اللبس بينهما ، غير أنهم قد اتفقوا على أن المرجع فى تمييز الشعر من النثر هو ما يحدثه من التأثير فى النفوس ، وما يتسلط به على الوجدان • وهم — و ن اتفقوا على ذلك — يختلفون فى عامل هذا التأثير • ويورد اليازجى أقوال طائفة من الأدباء تدور كلها حول هذا العامل ولا يترك قولا دون أن يناقشه ويبدى عليه ما عتد له من ملاحظات • فلا يرتضى القول بأن عامل التأثير فى النفوس هو ما يرد فى الشعر من أصناف المجازات والكنايات اذ فيها ما فيها من الافتنان فى التعبير وايراد المعانى على غير صورتها المألوفة محتجا بأن هذه المجازات والكنايات ليست أصلا فى المعانى الشعرية ، ولا تعلق لها بجوهر تلك المعانى اذ أن هناك من الأشعار ما خلا عنها ، ولم يفقد شيئا من خاصيته • على أن تلك المجازات والكنايات ليست وقفا على الشعر وحده بل تتعداه الى النثر فلو كان الأثر لها وحدها لكان فى النثر كذلك•

ولا يوافق على الرأى الذى يرجع تأثير الشعر الى المعانى التى تولدها قرائح الشعراء ، مما يجعل النفس تتجرد عن طور الحس وتلحق بعالم الخيال ، اذ أن ذلك من الممكن أن يتحقق فى القصة ، وهى غالبا ما تكتب نثرا • حتى اذا ما جاء الى الرأى القائل بأن عامل التأثير هو الوزن الذى يفعل فى النفس فعل الغناء لما يحتوى عليه من ايقاع رده أيضا ، لأنه — فى رأيه — لا يخرج عن كونه من الحلى التى تزيد فى حسن الشعر وتكسبه رونقه وطلاوته • بيد أنه لا يكون العامل لذلك التأثير « لأن الشعر اذا خلا من المؤثرات المعنوية لم يكن مؤثرا بالوزن وحده ، كما أن من النثر ما اذا توافرت فيه شروط الفصاحة وزين بفنون المجاز فقد يعارض الشعر فى ذلك مع خلوه من الوزن » •

والناظر فى مناقشة اليازجى لهذه الآراء ، تلك المناقشـــة التى تنتهى برفضه لها ــ يتوقع أن يجد منـــه رأيا مخالفا لها • غـــير أن اليازجى يرى أن عامل التأثير فى النفوس والتسلط على الوجدان وهو ما يتميز به الشعر من النثر يرجع الى كل هذه الأمور السالفة•اذ أن استنباط المعنى الجيد وابرازه فى ثوب من المجاز مما يؤثر ــ ولاشك ــ على العقول ، ويأخذ بمجامع القلوب ، وتمثيل هذا المعنى فى قالب من المجاز يقضى باعمال الفكر لرده الى حقيقته ، ومن ثم فان هذا المعنى ينطبع تأثيره فى الذهن أكثر من انطباعه اذا أفضى الى المدركة دفعة واحدة • وعلى هذا فان الشعر السهل المأخذ القريب التأتى بحيث تسابق ألفاظه معانيه وهو الشعر الذى امتدحه النقد العربى القـــديم بل لا يكون الشعر شعرا الا اذا كان كذلك فى نظره ــ أقول ان هذا النوع من الشعر يراه اليازجى أضعف تأثيرا على المتلقى من الشعر الذى يحتاج الى بعض الغوص على مراد قائله « لما فيه من تشـــوق النفس الى الوقوف على معناه ثم ظهور ذلك المعنى لها وهى متـــأهبة للانفعال به فانها تجد فى ادراكه من اللـــذة ما لا تجده فيما يأتيهـــا عفوا » • واليازجى فى هذه النقطة يبعـــد عن النقد القديم بالقـــدر الذى يقرب به من النقد الحديث الذى يقرر أن على المتلقى للشعر أن يبذل من الجهد والمعاناة بعضـــا مما عاناه الشاعر ساعة خلقـــه عمله الشعرى •

واذا كان اليازجى يرى أن الوزن من بين العوامل التى تؤثر فى النفس وتسيطر على الوجدان فانه يخالف النقاد القدماء فى اعتبـــاره ركنا أساسيا فى العمل الشعرى • فالوزن لديه ليس فى شىء من أركان الشعر ، ولا دخل فى ماهيته وأصل وضعه ، ويدلل على هذه الدعوى بأن الشعر القديم الوارد فى بعض أسفار التوراة لم يبن على أوزان مطردة ولم يفصل الى أبيات مقـــدرة كما هو متعارف اليوم بل كان

الشعر قديما يتميز بنباهة أغراضه وسمو معانيه والاكثار من الصور الخيالية والتفنن فى أساليب المجاز مع توخى الألفاظ الفصيحة والتراكيب البليغة التى لم تألفها العامة ولم تستبذل فى استعمال غير الخاصة •

واذا ما انتهى اليازجى من القضاء على الوزن عاد ليقضى على القافية فيذكر أنه لم يصطلح عليها الا فى الأزمنة المتأخرة ، ويبدو أن العرب أول من التزمها فى أشعارهم وعنهم أخذ غيرهم • ويلخص رأيه فى الوزن والقافية فيرى أن الفرق المعتبر بين الشعر والنثر ليس فرقا لفظيا وانما هو فرق معنوى وأن الوزن والقافية غير كافيين ليجعلا من الكلام شعرا ما لم يكن مستوفيا للشروط المعنوية بحيث يكون شعرا بالمعنى قبل أن يكون شعرا باللفظ •

ويصل الى الفارق بين كل من الشعر والنثر فيرى :

أن النثر هو القالب الطبيعى للابانة عن المعانى التى تتمثل فى النفس • ويتخاطب به عامة الناس وخاصتهم عالمهم وجاهلهم ، ذكيهم وبليدهم ، كاتبهم وأميهم • ومن ثم وجب أن يكون بحيث تفهمه جميع هذه الطبقات ، ويعبر به عن جميع المقاصد بأبين الصور وأوضحها • وعلى هذا فلغة النثر تختلف اختلافا جوهريا عن لغة الشعر،اذ لابد فى النثر من استعمال كل لفظ فى المعنى الذى وضع له بحيث ينتقل من اللفظ الى المعنى بدون واسطة •

أما الشعر فهو كلام يقصد به ما وراء مدلول اللفظ من مناغاة النفس ومناجاة الوجدان وحينئذ تورى فيه المقاصد تحت الصور الخيالية وتبرز المعانى فى أثواب من المجاز أو الكناية • ومن ثم فان الشعر ليس كالنثر تتخاطب به جميع الطبقات•وانما اختص بمخاطبات البلغاء وطبقات الكتاب والمتأدبين بحيث تتألف منه صور كاملة على حد ما يفعل المصور فى تصوير الأشباح ، والمغنى فى تأليف النغم ،

والمقصود من وراء ذلك كله « الاستيلاء على قوى النفس والبـاس المعانى المتأدية اليها من طريق الحس أو العقل ثويا من الخيـاليات بعد تلوينه باللون الذى يريده الشاعر تبعا لغرضه » •

واذا كان اليازجى قد استطاع أن يضع فروقا بين الشعر والنثر من حيث موضوع كل منهما ولغته فانه بهذا قد دق أبواب النقـد الحديث الذى يعترف بهذه الفروق ويؤكدها • فغاية النثر فى النقـد الحديث أن ينتقل أفكار المتكلم أو الكاتب ، ومن ثم وجب أن تشـف عبارته فى يسر عن قصده ، وجملة تقريرية وعلامات على معانيها • أما الشعر فلغته هى لغة الصور وموضوعه شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعورا يتجاوب هو معه ومن ثم يجد نفسه مندفعا الى الكشف فنيا عن خبايا هذه النفس أو ذلك الكون مستجيبا لشعوره السابق •

ويعود اليازجى ليقرر أن تأثير الشـعر فى النفس ليس خاصـا بالكلام المنظوم بل ان كل ما تضمن شيئا من الأغراض التى تؤثر فى النفس يعد شعرا وان لم يكن موزونا مقفى • ومن هذا المفهوم للشعر لا يعتبر اليازجى ما جاء فى شعر العرب من ضروب الآداب ووصف مكارم الأخلاق والحض على الكلم والتمسك بأسباب الحزم وما شاكل ذلك مما جمعه أبو تمام فى ديوان الحماسة تحت عنوان الأدب لايعتبره اليازجى مندمجا فى شرط الشعر على الرغم من شرف أغراضه ونباهة معانيه وما يحتويه من الحسن والبلاغة اذ أن معظمه كما يقول « من الحقائق المحضة » وهو داخل فى باب الخطابة وفائدته تهذيب الأخلاق وتنبيه الفطن وحفظ تلك الأقوال المتمثل بها وقت الحاجة ، ويلحـق بهذا أيضا نظم الوقـائع التاريخية وما يتصـل بها عن طريق السرد المقصود به مجرد ذكر تلك الوقائع • ومن ثم فليس داخلا فى دائرة الشعر قول السموءل :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

وقول معن بن أوس :

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

الخ هذه الأبيات وهو أيضا يخرج حكم زهير فى معلقته المشهورة من تلك الدائرة على الرغم من أن زهيرا عد لأجلها أشعر العرب • وينظر الى قول النابغة فى اعتذاره الى النعمان حين وشى به اليه :

أتاك امرؤ مستبطن لى بغضه له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ولم يأت بالحق الذى هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لأقوله ولو كبلت فى ساعدى الجوامع

على أنه نظم ليس فيه شىء من ديباجة الشعر ولا عليه طلاوة سائر كلام هذا الشاعر ؛ وذلك لأنه حكاية واقعة اضطر الى سردها ولا تحتمل شيئا من التخيل • وكذلك ما نظمه فى قصة زرقاء اليمامة فانه أشبه بأراجيز العلوم منه بكلام الشعراء •

واذا كان اليازجى قد نفى صنعة الشاعرية وما شاكله وان جاء موزونا مقفى فانه انطلاقا من هذا المفهوم نفسه يطلق صفة الشعر على بعض أنواع النثر وهو السجع المفصل بما يشبه قوافى الشعر ، اذ أن رنة الفاصلة فى هذا النوع من النثر لها من التأثير فى النفس ما للقافية فى الشعر • ولذلك فان لغة السجع تشبه فى الغالب لغة الشعر من حيث التأنق فى الألفاظ والتراكيب ، ومن حيث توخى الصور المجازية والاعراب فى المعانى الى آخر ما يتعلق بالشعر • واذن لم يبق ثمة فرق بين السجع والشعر الا الوزن الذى قد لا نعدمه أيضا فى

ذلك النوع النثرى وهو مراعاة طول القرائن بحيث تكون كل قرينتين متساويتين أو قريبتين من التساوى بل ان هناك نوعا من السجع قد بنى على التواقيع وقسم الى أجزاء عروضية قصيرة وان لم يكن لـــه وزن مخصوص• وهذا النوع له من الشبه بالموسيقى ما يقربه من شبه الشعر • ويمثل اليازجى لهذا النوع بالبنود الخمسة التى وصـــفها ابن معتوق وألحقهـــا بآخر ديوانه ومنهـــا قوله فى البنـــد الأول : أيها الراقد فى الظامة ، نبه طرف الفكرة ، من رقدة الغفلة ، وانظـــر أثر القدرة ، واجل غلس الحيرة ، فى فجر سنى الخبرة • وهو يصرح بأن السجع نوع من الشعر لا يحسن الا فى مقـــام التخييل ، وحيث يتلاعب المنشىء بضروب المعـــانى ، وهو يقصد بهذا السجع المتـــين الفواصل المحكم الوضع الذى ينبىء عن حركات النفس وانفعالاتها• ومن ثم فانه يعيب الأنواع الأخرى من السجع التى هى فى رأيه سجع ثقيلا التزمه أكثر المؤلفين لقصورهم عن اجادة كلام المرسل فيمجهون على الأسماع بتلفيق تلك الأسجاع • وعلى هذا فان مدح اليـــازجى للسجع ينبغى أن يكون داخل هذا الاطار المحدد وان كان هذا يخرج بنا عن النطاق الذى حددناه من قبل لهذا البحث وقصرنا فيه الحديث داخل دائرة الشعر •

وهكذا ينتهى اليازجى الى أن هناك من النظم ماله قالب الشعر دون أسلوبه ومعانيه وهو ما عناه العروضيون بتعريفهم • كما أن هناك من النثر ما له أسلوب الشعر ومعانيه دون قالبه • فليس الشـــعر اذن هو القول الموزون المتقى الذى انتهى الينا فى عصرنا هذا على ما فيه كثير من الخلل حتى فى ذلك القالب المحسوس •

ولاشك أن رأى اليازجى هذا رأى له خطورته فى النقد العربى•فان الغاء الوزن والقافية من الشعر أمر لم يقل به حتى أكثر المغالين تطرفا، ودعوة الشعر الحر القائمة الآن لم تسقط الوزن من اعتبارها ، وانما

قامت على أوزان مخصوصة مستقاة من أوزان الخليل كما أنهـا لم تغفل جانب القافية اغفالا تاما • ومع ذلك فلا يزال الشعر الحر يتعثر فى خطواته على الرغم من تمسكه ببعض المعايير الموسيقية • والذى لاشك فيه أيضا أن أهم الفروق بين الشعر والنثـــر انما يكمن وراء الموسيقى التى نحس بها فى الشعر ولا نجدها فى النثر ، ومهما اختلف النقاد حول مفهوم الشعر ومهما تعددت هذه المفاهيم لديهم فانهم جميعا يكادون يلتقون فى نقطة التقاء واحدة تميز أحد هذين الفنين عن الآخر تلك هى الموسيقى فلاشك أن الموسيقى أبرز صفات الشعر ، وبدونها لا يعد الشعر شعرا وان توافرت فيه جميع الامكانات الأخرى التى تتوافر فى النثـــر • واذا كنا نرى فى بعض أنـــواع النثر نوعـــا من الموسيقى فى صورة قوافٍ تنتهى بها الفقرات المســماة بالسجع وفى التزام طول معين لهـــذه الفقرات بحيث يكاد يكون عدد المقاطع محددا فان الموسيقى فى الشـــعر من نوع أرقى بل هى كما يقول الدكتـــور ابراهيم أنيس فى كتابه موسيقى الشعر « أسمى الصور الموســـيقية للكلام وأدقها لأن لها نظاما لا يمكن الخروج عنه »(١) •

واستناد اليازجى الى الشعر القديم فى خلوه من الوزن والقافية استناد لا مسوغ له فان اللغات تختلف فيما بينها • والذى نعـــرفه من أمر العربية أن شعرها انتهى الينـــا موزونا مقفى • فليس بلازم وقد جاء الشعر القديم الوارد فى بعض أسفار التوراة على صـــورة مخالفة للشعر العربى ــ أن يجىء شعرنا على نفس الصورة • ولايزال الشعر فى كثير من الأمم موزونا مقفى نلمـــح موسيقاه لدى البدائيين وأهل الحضارة ويستمتع بها ويحافظ عليها هؤلاء وأولئك • كمـــا أن مجىء بعض الأشعار خلوا من الروح الشعرية لا يجعلنا نغض الطرف

---

(١) ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ١٠ ط ١ •

عن خاصية الشعر • فليس ذنب الشعر أن يرتدى رداءه بعض ناظمى المتون والحقائق العلمية ، أو أن يتفكه به بعض من أعمت الألغاز والأحاجى والتأريخ وما شابه ذلك عيونهم ، وانما يقع العبء كله على هؤلاء الذين لعبوا بالأوزان والقوافى واتخذوا منها أداة للتفكه والمزاح وازجاء لوقت الفراغ أو آلة لصنع علومهم ومتونهم • أحسب أنه بقدر ما حالف اليازجى من توفيق فى الترفيق بين الشعر والنثر من حيث لغة كل منهما وموضوعه بقدر ما جانبه التوفيق فى هذه الدعوى الجامحة الرامية الى التخلص من الوزن والقافية فى الشعر ولعلنا نلتمس له بعض العذر اذا وقفنا على المستوى الذى انحدر اليه الشعر فى عصره وفى عصور سبقته على يد كثير من مدعى الشعر حتى انه لم يبق الشعر غير كونه موزونا مقفى • أما ماعدا ذلك من الأمور فلا يهم المتطفلين على موائده أن يواروها الثرى وقد فعلوا •

ويدلى اليازجى بدلوه فى المعانى الشعرية ويفصل القول فى هذا الأمر تفصيلا فهو لا يرضى عن شعر المولدين الذين أفعموا شعرهم بالتفنن فى المعانى ، ويفضل عليه شعر المتقدمين الذين نأوا بشعرهم عن هذا التفنن فجاء بمعزل عنه ، لأن غاية المجيدين منهم كانت فى جعل شعرهم تاما مستوفى الجهات لا يبعدون فى ذلك عن الحقيقة وان زينوها بشىء من أنواع المجازات • وهذا فى رأيه أصل من الأصول المعتبرة فى الشعر ، أما الشعراء المولدون فقد قل فى شعرهم ما رأيناه فى شعر سابقيهم ، ويعلل لذلك بأن هؤلاء المولدين قد انصرفوا عن العناية بما جاء فى شعر السابقين الى العناية بالمعنى الجزئى وابرازه فى الصور الغريبة ومن هنا تحول معظمهم الى التفنن فى الخيال المحض والامعان فى ابتكار الغريب • ثم انتقلوا الى الاشتغال بالجناسات اللفظية والخطية ، لأنهم عجزوا عن استنباط المعانى ، وقصروا عن تصور الوصف الصحيح حتى أصبح الشعر صورة لا معنى

لها اذ هو أقرب الى مذاهب البـــلاغة منه الى اسلوب الشعر • فمـــا السر الذى يكمن وراء ذلك كله ؟

السر فى رأيه هو أن هؤلاء الشعراء قد تكسبوا بشعرهم،وأخذوا يتقربون الى الملوك والأمراء بقصائد المدح ، ومن ثم تناولوا أغراضا كثيرة لم تكن تخصهم بقدر ما كانت تخص ممدوحيهم ، ولذلك أخذوا فى اختلاق بدائع الصور وغرائب التماثيل مما أدى الى غلبة الصنعة على شعرهم والتفنن فى استنباط المعانى النادرة وابرازها فى القوالب الناصعة من اللفظ دون الصدور عن تلقين الطبع ووحى القريحـــة الحق « ولهذا فانك كثيرا ما ترى تفاوتا فى شعر الشاعر الواحد بين أن ينظم فى أغراض نفسه ويتكلم فيما يبعثه عليه طبعه أو يتوخى مدحا لأحد الرؤساء أو تهنئة لأحد الملوك أو غير ذلك من الأغراض المستدعاة التى يسخر فيها الشاعر قريحته للكلام فى أمور ليست فى شىء من غرضه ووجدانه أو يتوخى مبـــاراة سائر الشـــعراء فى اختراعهم للمعـــانى وايغالهم فى طلب الغريب منها وهذا لا نكاد نراه فى شعر المتقدمين ، لأنه لم يكن يعترض قرائحهم هوى ممدوح ولا ارضاء مستجدى ، ولم يكن بينهم مباراة الا فى الكشف عن المعانى الطبيعية •• وهذا ولا شك أعز منالا وأوعر مسلكا والفائزون بغرره قليل » •

ومعنى هذا أن اليازجى يفضل تلك التجربة الشعرية الصادقة التى تكشف عما فى نفس الشاعر من مشاعر وعواطف وهو لا يترك هذا الكلام وحده فى هذا الميدان المجـــدد تصارعه النظرة العقيمـــة الى الشعر • بل يرفده بشواهد كثيرة يدلل بها على صـــدق هذه الدعوى ولنستمع معا الى هذه الأبيات فى الرثاء :

فتى قد قد السيف لا متـــــآزف
ولا رهـــــل لبـــــانه وبآدلـــــه

فـــتى ليس لابن العـــــم كالذئب
ان رأى بصاحبه يوما دما فهو آكله

يسرك مظلـــوما ويرضيك ظـــــالما
وكل الذى حملـــته فهو حـــــامله

اذا جد عند الجد أرضاك جـــــده
وذو باطل ان شئت ألهاك باطلـــه

فتى لا يرى ما فـــــات مقدمك له
ولا الخلد ما ضمت عليه أناملـــه

الى آخر هذه الأبيات التى يوردها اليازجى من هذه القصـــيدة التى يعلق عليها بقوله « فانظر الى هذه الأوصاف البديعة التى تمثل صاحبها فى أشرف حال من كمال الخلق والخلق والاستيلاء على المحامد وعلو الهمة وكرم الخلال من غير أن ترى فيها شيئا من الغلـــو الذى تراه فى شعر المولدين • لا جرم أن مثل هذا الوصف أوقع فى النفس وأجدى فى باب المدح من تلك المبالغات السمجة التى ترى عليها مسحة من الكذب ولا تفيد شيئا فى تصوير صفة الممدوح اذ لا يعيرها السامع جانب التصديق ولا يتصور فيها شيئا من الحقيقة ولكنها مجرد تلاعب فى الكلام لا يخرج فى نظر الناقد عن باب الفكاهة والملحة » ولنقـــرأ قصيدة مـــالك بن الريب فى رثاء نفسه وقد اشـــتملت على المعـــانى الوجدانية التى تصور بحق احساس الشاعر وعواطفه ولقـــد أورد اليازجى أبياتا كثيرة منها للتدليل على ما رأى :

ويحكم نفس المقياس فى شعر المتنبى فيرى أن هناك من القصائد له ما جاءت كما ينبغى للشعر أن يجىء مثل القصيدة التى مطلعها :

ضيف ألم برأس غير محتشم السيف أحسن فعلا منه باللمم(١)

ويرى اليازجى أنها ما جاءت كذلك الا لأن المتنبى قد قصرها على أغراض نفسه ولم يخاطب بها أحدا من ممدوحيه فلم يدخل ثمة بين قلبه ولسانه ما يدعو الى التصنع • ومثل ذلك المرثية التى مطلعها :

انـــى لأعلـــم واللبيب خبـــيرى أن الحياة وان حرصت غرور(٢)

فهى أشبه بالقصيدة السابقة وما ذاك الا لأن مقام الرثاء أبعد عن مواطن التصنع والتـــأنق لأنه مقام تخشـــع فيه حركات النفس ولا يبقى فى الخاطر فضلة عن الاصغاء لمناجاة القلب •

ولا يكتفى اليازجى بايراد الشواهد الجيدة بل يورد أيضا أبياتا هى فى رأيه خروج من الشعراء بشعرهم الى حـــد الهذيان وبايرادها يتضح الفرق بين المذهبين كما قال • فمن ذلك قول المتنبى :

وأقسم لولا أن فى كل شعرة له ضيغما قلنا له أنت ضيغم(٣)

اذ كيف تقدم كل شعرة من الممدوح مقام أسد فى شجاعته وشدة بأسه ؟ ومثل قول الآخر :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

وأصحاب البديع يرون هذا كما يقول اليازجى — من حسن التعليل وقد ذهلوا عما فيه من الافراط فى الغلو حتى صار شبه بالهزوء منه بالمدح • وكقول الآخر :

أسكر بالأمس ان عزفت على الشرب غدا ان ذا من العجب

وصدق انه من العجب ولكن أعجب منه أن يخترع المرء مثـــل هذه الخرافة ثم يتعجب منها • ومن ذلك أيضا قول الحلى :

لو قابل الأعمـــى غـــــدا بصـــيرا

ولو رأى ميتـــــا غدا منشـــــورا

ولو يشـــأ كان الظـــلام نـــورا
ولو أتـــاه الليـــل مســـتجيرا
آمنـــة من ســـطوات الفجـــر

الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التى يسوقها اليازجى والتى يعلق عليها قائلا « وكل هذا مما لا يقبله العقل لا يحسن فى الذوق ولا فيه شىء من الاختراع • انما هو أن يعمد الشاعر الى الأحوال الطبيعية وهى بين يديه فى ذهن كل أحـــد فينتقها أو يخـــرجها الى ما وراء حدودها فيقول فلان اذا زجر الريح مثلا وقفت عن مسيرها ، واذا غضب على الشمس لم تشرق ، ولو شاء لجعل البحر فى كفه ، ولو ضرب بسيفه الحيل لقده • وقس على ذلك مما لا يصعب على الفكر الانتقال اليه • بل الذى عندنا أن كل ذلك مهما اختلفت صورته لا يعد الا معنى واحدا اذ حاصل هذه الصور كلها أمر واحـــد وهو اخراج الأشياء عن مطبوعها » •

ولا شك أن هذه نظرات ثاقبة لليازجى تضـــاف الى تلك النظرات الثاقبة الأخرى التى سبق أن أشرنا اليها • واللافت للنظر بحق من بين تلك الآراء ـــ ذلك الرأى النافذ الخـــاص بشعر الطبع وشـــعر الصنعة • واذا كان الشدياق قد سبق اليازجى فى الكلام ـــ عن هذين اللونين من الشعر وفرق بينهما بأن الشاعر بالصنعة هو من يتكسب بشعره فيمدح هذا ويكذب على هذا حتى ينال منهما شيئا • وأن الشاعر بالطبع هو من يصدر عنه الشـــعر لباعث من البـــواعث دون تكلف أو انتظار للجائزة • فان اليازجى قد فصل القول فى ذلك ودعمه بذكر الأمثلة وايراد الشواهد الدالة على كل من اللونين مما لا يدع مجالا لمستزيد وبخاصة فى تلك الآونة المبكرة من صحوة النقد العربى•واحسب أن هذه النظرة التى وجدت لدى كل من الشدياق واليازجى جديدة كل الجدة فى النقد العربى ، فما أظن أن أحدا من النقاد قد لفت نظر

الشعراء الى هذا بل انهم قد رسموا للشعر طريقا ودعوا الشعراء الى السير فيها وحذروهم من أن يحيدوا عنها • وان شئت أن تتأكد من صدق ذلك فما عليك الا أن تطالع ما يذكره ابن رشيق فى العمدة اذ يرى أن « الفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها وينظر فى أحوال المخاطبين فيقصد محابهم ويميل الى شهواتهم وان خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره » ولقد التفت الشدياق الى ذلك حينما ذكر أن هذا الفرق ليس مما ذكره الآمدى ودعا الشدياق مناظره الى أن يبعث الآمدى الى أحد وأن يسمع منه ما يقوله له • وكل من الشدياق واليازجى يتفق بهذه النظرة مع النقد الحديث الذى يدعو الشعراء الى الابتعاد عن الزيف والتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم ولاشك أن هذا واضح تمام الوضوح من الأمثلة التى أوردها اليازجى للتعبير عن الشعر الوجدانى ، فكل هذه الأمثلة — لا تصنع فيها ولا تكلف وانما هى نفثة من الشعراء عبروا بها عما يجيش فى صدورهم وما يدور فى نفوسهم من عواطف ومشاعر ، ولعله من الواضح أن جميع الأمثلة التى ذكرها تدور حول الرثاء وهو غرض كما قال هو أبعد ما يكون عن مواطن التصنع والتكلف اذ الباعث اليه انما هو عاطفة قوية جاشت بها صدور الشعراء فأفرغوها رثاء دون انتظار لعطاء أو نظر الى جائزة •

يبقى بعد ذلك من نظرات اليازجى فى النقد مسألة دار حولها جدل كثير بين النقاد وهى الوحدة العضوية للقصيدة • ولليازجى رأى فى ذلك يقرب على أية حال من مفهوم هذه الوحدة فهو يرفض بتناول القصيدة بيتا بيتا دون نظر الى ما بين أبياتها جميعها من صلة وبعبارة أخرى يرفض الفكرة القائلةبوحدة البيت لوجوب استقلاله فى اللفظ والمعنى عن سابقه ولاحقه وهو يعبر عن ذلك أصدق تعبير فيقول « ان منزلة الأبيات من القصيدة كمنزلة الكلمات من البيت فكما أنه

لا يفهم معنى البيت الا بعد النظر فى مفرداته وعلاقة بعضها ببعض لا تفهم القصيدة الا بعد النظر فى نسبة الأبيات وما بينها من الصلة المعنـــوية » وهو من هذه الناحية يأخذ على جميـــع الشراح لديوان المتنبى وقوعهم فى بعض المزالق الخطرة لأنهم تناولوا قصائد المتنبى بيتا بيتا دون النظر الى القصيدة وما يربط أبياتها من صـــلة بل انه يصرح بأن بعض الأبيات لابد لاستخراج الغرض منه أن نرجع الى الأبيات السابقة والأبيات اللاحقة • ومن حيث التطبيق لا يرى عيبا فى قول المتنبى :

لو استطعت ركبت النـــاس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرانا (٤)

اذ عيب عليه ركوبه كل الناس فان من الناس الذين يركبهم أباه وأمه ــ لأن اليازجى يلتمس المعنى الصادق من الأبيات التى تلى هذا البيت فبعده يقول المتنبى :

فالعيش أعقل من قوم رأيتهم عما يراه من الاحسان احسانا

ومن ثم فان المتنبى لا يريد بالقوم العموم والشمول وانما يقصد قوما بخصـــومهم وهم أولئك الذين فى صورة الانسان وعقل البهـــائم لأنهم عموا عما رآه هـــذا الممدوح من الاحســـان وعلى هـــذا فانه لو استطاع أن يعاملهم كما تعامل البهائم ــ لفعل ، لأنهم فى منزلتها ان لم يكونوا أقل منها منزلة •

ويطول بى الحديث لو أنى تتبعت شرح اليازجى لديوان المتنبى لأستخرج منه هذه الوقفات التى تدل على وعى كامل لليازجى بشرحه للنصوص وتحليلها التحليل الأدبى الســـليم ، والذى منه نســـتطيع الخروج بأن اليازجى قد نظر الى هذه الوحدة وان لم يلح عليها الحاح من أتى بعده من النقاد •

وبعد : فأعتقد أن اليازجى ــ بعد هذا العرض الشديد الايجاز لنظراته النقدية ــ قد ظلم كما ظلمت الفترة التى عاش فيها ــ حينما اتهم نقادها بأنهم كانوا نقادا لغــويين يتشبثون بتلابيب اللغــة فى نقدهم ، حتى وجدنا أحــد الدارسين المحدثين ، وهو الأستاذ عمــر الدسوقى ، يسلك اليازجى فى مسلك النقاد « الذين سلفوا مســلك السلف فى النظرة الى الشعر ، وطبقوا قواعد البلاغة القــديمة فى النقد ، ولم يروجوا فى نقدهم لمذاهب جديدة فى الأدب ، أو ينمــو على تأثر بتيارات الأدب الغربى » • فاليازجى ليس من أولئك الذين سلكوا مسلك السلف ، ولا من الذين لم يروجوا فى نقــدهم لمذاهب جديدة فى الأدب ، ولا هو من الذين قنعــوا من الثقافات بالثقــافة العربية ، بل انفتح على الثقافات الأخرى ينهل من معينها ، ويفيــد من تياراتها•وحتى اذا صدق قول الأستاذ عمر الدسوقى على ابراهيم المويلحى ومحمد المويلحى وهما اللذان ذكرهما مع ابراهيم اليــازجى ممثلين لهذا الاتجاه الذى ذكره وهو الاتجاه اللغوى فى نقد الشــعر والنظرة اليه نظرة الســلف ، فأعتقد أنه لا يصــدق على ابراهيم اليازجى بعد ذلك العرض المختصر لنظراته فى النقد •

والحق أن الذى أوقع هذا الدارس وغيره من الدارسين المحدثين فى ذلك الخطأ هو ما شاع عن هذه الفترة التى عاش فيهــا ابراهيم اليازجى وهى فترة النصف الثانى من القرن التاسع عشر دون بذل أدنى محاولة للتحقق من ذلك الذى شاع وذاع عنها ، ودون الرجوع الى المصادر الأصــيلة لؤلاء النقاد الذين عاصروا فترة اليازجى والتى أودعوا فيها خواطرهم فى النقد ، ولا أدل على ذلك من أن أحد هؤلاء الدارسين لم يحاول الرجوع الى دوريات تلك الفترة التى عاشــها اليازجى بما تمثله من صحف ومجلات كثيرة صدرت فى ذلك الحــين فى مصر وفى غير مصر وضمت بين دفتيها نظرات هؤلاء النقاد فى النقد •

ومن ثم كان ذلك الحكم الذى يحكم به الأستاذ عمر الدسوقى وغيره من الدارسين وهم كثير ، وهم حكم لا يصور الحقيقة تصويرا كاملا ان أحسنا به الظن •

فما أحوجنا نحن الدارسين الآن الى التثبت من الأحـــكام التى نصدرها ، والى توثيق ما نطلقه من أقوال توثيقا كاملا ، حتى لانلجأ الى صنع قوالب جامدة لنصب فيها تلك الأحكام وهذه الأقـــوال • ولا يسعنى هنا أيضا فى هذا المجال الضيق أن أبين مدى العسف فى رمى نقاد النصف الثانى من القرن التاسع عشر ــ مصريين وشاميين ــ بتهم هم أبعد ما يكونون ــ عن الاتهام بها والوقوف فى ذلك القفص الحديدى لمحاكمتهم عليها •

واذا كان هناك من نتائج قد توصل اليها هذا البحث القصـــير فلعل من أهمها :

١ ــ لابد من التوفر على دراسة التراث النقدى الذى خلفه العرب فى فترة النهضة بالأدب فى العصر الحديث ، وهى الفتـــرة التى تلت خروج الفرنسيين من مصر ، وازدهرت فى النصف الثانى من القـــرن التاسع عشر ، دراسة منهجية متأنية ، حتى لا نظلم نقادها ، ونرميهم بغير ما ذهبوا اليه واساقوا نحوه •

٢ ــ كان لاتصال الأدب العربى فى فترة النهضة بالآداب الأخرى وبخاصـــة الأدب الفرنسى أثر كبير فى دعوة النقاد العرب الى قيـــم جديدة لفهم الأدب العربى شعره ونثره • كما كان للاتصال بالآداب الأخرى الأثر الفعال فى خلق أجناس أدبية لم تكن موجودة فى أدبنا العربى • وما المسرحية فى الأدب العربى الا نتيجة لهذا الاتصـــال المحمـــود •

٣ ــ بذلت محاولات كثيرة على طول مراحل الشعر العربى للتخلص من الوزن والقافية أو للتحرر منهما أو من أحدهما كما ورثناهما عن العرب القدماء • وقد بدأ هذه المحاولات فى العصر الحديث رزق الله حسون فى كتابه أشعر الشعر حين دعا الى التخلص من القافية تخلصا تاما محتجا بأن الشعر عنده ليس الا الكلام الموزون فحسب وقد دعم هذه الدعوة النظرية بأن أنشد شعرا من هذا القبيل فقد تخلص من القافية تماما فى واحد وعشرين بيتا ضمنها كتابه المذكور • أما اليازجى فقد أراد التخلص من الوزن والقافية تخلصا تاما • غير أن دعوته هذه لم تكن مصيبة ولا هى قريبة من الصواب •

٤ ــ حمل اليازجى على الأغراض الشعرية التى لا تمت الى العاطفة الصادقة ، ولذلك دعا الى اطراح أغراض كثيرة دار فيها الشعر العربى القديم فى عصوره المختلفة • اذ أن الشعر الحق هو ذلك الشعر الذى ينبع من الذات • وقد حاول اليازجى اخراج الحكمة من دائرة الشعر • ولم يكن موفقا فى ذلك الذى ذهب اليه فيما يختص بشعر الحكمة •

٥ ــ رأى اليازجى وجوب تخلص الشعر العربى من المبالغات التى أغرق فيها ومن التمسك بأشياء هى أبعد ما تكون عن طبيعة الشعر • وهو فى هذا يسبق عددا كبيرا جدا من النقاد المحدثين فى هذه الدعوة •

٦ ــ وقف اليازجى كثيرا عند مفهوم الوحدة فى القصيدة العربية• وقد فهمها فهما يكاد يقترب من فهم المحدثين لها • وطبق هذا الفهم على أشعار للمتنبى حفيت على كثير من شراح ديوانه لأنهم لم يحاولوا دراسة شعر المتنبى دراسة كلية شاملة • وكان مصيبا فى ذلك الى حد كبير •